عالي الهمة.. يا ابن الإسلام أنت يُوسف هذه الأحْلام

أخي:

أنت كنز الفضائل، ما من فضيلة فيك إلَّا ويطبع الإسلام عليها صورة الجنة، ولا رذيلة تتحاشاها إلَّا والإسلام يضع عليها صورة النار التي وقودها الناس والحجارة.

كان التاريخ واقفًا لا يتزحزح، ضيّقًا لا يتسع، جامدًا لا ينمو حتى جاء المسلم أخو الشمس يطلع بنوره كل يوم على الدنيا.

أخي:

أنا على يقين دائمًا أن المسلم معه الغد وآتيه، وإن أدبر عنه اليوم وذاهبه، إن المسلم ليس رجل الأرض في الأرض، ولكنه رجل السماء في الأرض، إنه يتسع في الزمان والمكان من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه، وكأنما كانت شمس فجره الآتي الذي سينتصر فيه، قبل أن تشرق على الدنيا مشرقة في قلبه.

أخي:

أنت للدنيا كالمنارة على الساحل تهدي الحائرين وترشد الأدلَّاء.

أنت أولى الناس بقول القائل:

وحقيقتي نورٌ فمالي سابحًا ... في لجة الظلمات والأشجانِ

أنا أمّة فيها أريد لأمتي ... وولايتي دنيا من الأجيال

فاخلق لنفسك نشوة ... في المجد ترهب في العرين أسودا

واجعل نشيدك قول ربك لا تخف حتى يهاب البرق منك رعـودا [(١)]

يا ابن الإسلام:

إن هذه الشعلة من طين، عندما تتحلى بالتوحيد والإيمان واليقين، تكتسي بجناحي الروح الأمين، وتطير بهما في العالمين.

كن عبدًا لربك تكن حرًّا، قل لكل قيود الأرض: لا، لا يا قيود الأرض، فإنه لا تغني السيوف الصارمة، والعقول الراجحة في الرقّ والعبودية فتيلًا، ولا تتحطّم سلاسل العبودية وأصفاد الذل والصغار إلّا بطعم الإيمان وذوق التوحيد واليقين.

✍ أخي:

إن البصيرة الإبراهيمية والعزة والإسلام والتوحيد لا تتأتّى بسهولة، ولا توهب مجانًا، فكم من الأهواء تختفي في مسارب النفس وتكوّن لها أعشاشًا وأوكارًا.

يا ابن الإسلام ويا يوسف الأحلام:

كن نغمة الأخوة الحانية، ولسان الحبّ البليغ.. انطلق للدعوة إلى الله ﷻ.. لا تحدّك حدود، ولا تغلّك قيود، رفرف بجناحيك يا طائر الحرم، وقبل أن تحلّق في الفضاء، انفض عنك غبار اللون والنسل والوطن والتراب، شقّ لك الطريق في اليباب القفار، وحطّم الجبال بسيلك العرم وتيارك، وإن اعترضتك حديقة في الطريق فناغمها بجد ولك الجميل المنساب، الذي له خرير يُسكر النفوس ويبهر الألباب.

---

(١) «إقبال الشاعر الثائر» (ص٦٩) لنجيب الكيلاني.

✍ علّم البلابل دروس التغريد ولحن التوحيد، وانفخ في الطيور روح الخفة، وافتح أكمام الزهور والرياحين، فأنت نسيم سحر العالم، ونفحة روضته الندية..

فدت نفسي وما ملكت يميني ... فوارس صَدَّقتْ فيهم ظنوني
فوارس لا يملّون المنايا ... إذا دارت رحى الحرب الزَّبون[(١)]

يا ابن الإسلام:

أحب شيء إلى نفسي أعزّه وجودًا وأبعده منالًا.. أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال، يملأ عيني برجولته، ويروّح نفسي.. مسلم يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية، وبين عُبّاد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص، وبين عُبّاد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقياته وإنسانيته، وبين عُبّاد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرَّده من الشهوات وتمرّده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه، يعيش برسالته ولرسالته.

إنك أيها المسلم في العالم وحدك، وأما ما عداك فسراب خادع ودرهم زائف.

أنت نقطة دائرة الحق، وكل ما عداك فسراب خادع ودرهم زائف.

أنت أنت لا تتغير ولا تتحول، وأما ما عداك فزبد يذهب جفاءً.

أنت الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وما عداك

(١) لأبي الغول الطهموي. والحرب الزبون هي: التي تصدم الناس وتدمغهم.

شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

بقاؤك كبقاء الشمس والكواكب النيّرة؛ لأنك تحمل رسالة خالدة، وتحتضن أمانة خالدة، وتعيش لغاية خالدة، أنت رمز لرسالات الأنبياء، وأذانك إعلان للحقيقة التي جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليهم وسلم).

أنت رسالة الله الأخيرة، فلا يعتريها النسخ والتبديل.

أنت موج من أمواج بحر الإسلام الخضم، يأتي موج ويذهب موج، وتترامى الأمواج في أحضان البحر وتتلاشى في وجوده، والبحر لا يتغيّر؛ فالبحر امتداد دائم، كبحر الحياة وبحر الوجود، تتبدّل أمواجه ولا يتبدّل كيانه.

إن العالم ميراث للمؤمن، لا يشاركه فيه أحد، خُلق وسُخّر له.

على الأذان الصارخ والنداء العالي، الذي ارتفع من جبل «أبو قبيس» قبل ثلاثة عشر قرنًا، استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق، وكان نفخة صور للإنسانية الميتة والعالم المحْتَضَر، وهو الكفيل الآن بإيقاظ الإنسانية وإحياء الضمير البشري.

إن المؤمن إذا نادى في الآفاق بأذانه، أشرق العالم واستيقظ الكون.

إن الفجر الذي سيهتز له هذا العالم المظلم ويُولي به ليل الإنسانية الحالك إنما ينشأ بأذان المؤمن.

إن المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيقة، بل تتخطى حدود المكان والزمان، وتفيض كالطبيعة البشرية، وكالإنسانية العامة، في مساحة زمانية شاسعة، كمساحة التاريخ

الإسلامي، وفي مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الإسلامي.

✍ إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود، ولا يعرف أفقه الثغور، ليس النيل والفرات وسيحون وجيحون إلَّا أمواجًا صغيرة في بحره المتلاطم. عصوره عجيبة وأخباره غريبة، نسخ العهد القديم، وغيّر مجرى التاريخ. هو في كل عصر ساقي أهل الذوق، وفي كل مكان فارس ميدان الشوق، شرابه رحيق دائمًا، وسيفه ماض في كل معركة.

✍ إن المؤمن هو الميزان العادل، والقسطاس المستقيم، به يُعلم رضا الله وسخطه، وبه يعرف الحسن من القبيح، فما راق في نظره فهو حسن، وما استقبحه فهو طائش، وفي عزائمه تتجلى الإرادة القوية، وهو الدين يسعى على قدميه، هو صاحب معان كثيرة، وشدو واحد، فهو كسورة الرحمن في القرآن، تتجدّد معانيه وتتكرر فيه آية: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن]، ينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه، ويكرر رسالة الأنبياء، ويقول لكل جيل: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

✍ هو كالصبح جديد وقديم، فهو في جدّته ليس أجدّ منه، وهو في قِدَمه ليس شيء أقدم منه؛ هو قديم لكنه يتجدّد به العالم، وتتجدّد به الكائنات، وتنتعش به القوى، وتستيقظ به الأجسام والقلوب والعقول؛ ثم هو جديد بنفسه، تتجدّد قواه ويتجدّد نشاطه، وتتفتح قريحته مع العصور، علمه سيّار، وعقله مبتكر، ونفسه طموح، وهمَّته وثّابة، وهو كالمطر كل قطرة غير الأولى، ولكنها قطرات، كلها تحيي الأرض، وكلها تنبت النبات، وكلها تسقي الزروع والأشجار، وكلها تفتح الأزهار،

وكلها تكوّن الأنهار.

• قال رسول الله ﷺ: «**مثل أمتي مثل المطر..**».

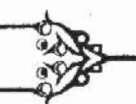
عجبًا لك أيها المسلم! تجلَّت لك الآفاق، وغابت عنك نفسك؟ إلى متى تظل غافلًا جاهلًا؟ وتجلس ضائعًا عاطلًا، إن نورك الوهَّاج أنار العالم القديم، ونسخ الليل البهيم، ولا تزال اليد البيضاء التي ورثتها عن موسى في كمِّك، تتخطى حدود الآفاق الضيِّقة، فأنت السابق لها والفائق عليها، هل تخاف الموت؟ لقد كان جديرًا بالموت أن يخافك، فأنت تكمن له وترصد به.

اعلم يقينًا، أن الكريم إذا وهب شيئًا لا يسلبه ولا يسترده، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح، إنما حتفه في ضعف الإيمان والحرمان من اليقين.

✍ **أخي:**

افتح عينيك أيها الزهر النائم مثل النرجس الذي لا يطبق عينيه لحظة، ولا يعرف الكرى إليه سبيلًا، لقد أغار على وكرنا الأعداء، ونهبوا كل ما فيه من كنوز وخيرات، ألا يكفي هدير الحمام، وصفير الآذان، وأنين القلوب والأرواح، وبكاء الثكالى واليتامى، وصراخ السبايا أن يوقظك؟! انتبه من هذا السبات العميق، الذي طال أمده واشتدت وطأته.

لقد بدأت الشمس رحلتها المباركة، وارتفع عمود الصباح المنير في بحر الظلمات، وحزمت القوافل في الجبال والصحاري أمتعتها، وضُرِب نفير الرحيل، فما لك أيتها العين الساهرة! التي خُلِقت لمراقبة الإنسانية، وحراسة الضعفاء تنامين؟



يا ابن الإسلام:

لقد أصبح بحرك هادئًا ساكنًا كالصحراء، لقد فقد طبيعته، فلا مدّ فيه ولا جزر، عجبًا لهذا البحر الذي لا يهيج ولا يموج، وليس فيه تمساح طموح مغامر، ولا موج ثائر عارم!.

اقفز من حدودك الضيّقة الهادئة لتفيض على البراري والقفار والنجاد والأغوار.

بك قِوام العالم وبقاء الأمم، فاشرب كأسًا فائضة من اليقين، وانهض من حضيض الظن والتخمين.

يا ابن الإسلام:

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول، وسحروا النفوس، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرّة بالرقة والدلال، ومَرّة بالقيود والأغلال.

إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته لا يليق به إلّا عروش الملوك وأسرّة السلاطين، إنه لا حياة لك ولا قوام، ولا شرف ولا كرامة إلّا بهذه المعرفة، فإذا ملكتها ملكت العالم، وإذا فقدتها أصبحت من سقط المتاع.

يا يوسف هذه الأحلام:

إن كل ما في العالم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكية، راحل زائل، وغائب آفل، وأنت أيها المسلم بطل المعركة، وكل ما حولك من سافلٍ وعالٍ، ورخيص وغال، من جنودك وأتباعك.

أخي:

يا وارث التوحيد يا أنا! هل أصبحت كسائر الناس لا تحمل روحًا ولا تجذب نفوسًا؟

إن السجدة التي كانت تهتز لها روح الأرض، طال عهد المحراب بها، واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطر؛ لم أسمع ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال الأمس.

لم أر في محيطك أيها المسلم لؤلؤة الحياة، قد بحثت عنها موجة موجة، وتفقدتها صَدَفة صَدفة.

أخي:

إذا رأيت النجوم شاحبة منكدرة تخفق، فاعلم أن الفجر قريب، ها هي الشمس قد ذرّ قرنها من الأفق، وولى الليل على أدباره، إن عاصفة الغرب على الإسلام قد أعادت المسلم إلى الإسلام، فإنما تتكون اللآلئ في البحر المتلاطم الهائج، لقد دب دبيب الحياة في المسلم، وجرى الدم في عروقه.

يا حُرّاس الدين وأمناء الله في العالمين، يا من لو أقسمتم على الله لأبركم، إذا تألّق نجمكم في آفاق السماء أفلت نجوم الآخرين، وطُوي بساطهم، لن تسعكم الصحراء والفيافي. فاضربوا خيمتكم في وجودكم الذي يسع الآفاق، كونوا أسرع من العاصفة وأقوى من السيل، حتى تسرع ركائبكم في مضمار الحياة وتسبق الريح.

امتلكوا ناصية الأيام، خذوا عنان التاريخ، وقودوا قافلة البشرية إلى الغاية المثلى.

من الذين أكرمهم الله بالسبق إلى قراءة القرآن سواكم؟! من الذي دوّى أذانه في العالمين غيركم؟! هل العلم إلّا فتات مائدتكم، وهل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] إلّا وصف حالكم؟!.

مرّ الإسلام على صحرائكم فأنبتت الأزهار والرياحين، صهيل خيل أبي سليمان خالد بن الوليد، وسيف صلاح الدين، ونظرة الزاهد الأواب بشر بن الحارث، وذكر الفضيل بن عياض، وفكر ابن تيمية، ودويّ التكبير والصلوات، وزمزمة جَلَبة الحروب والفتوح بين الخافقين.

أخي:

إني أرى في مرآة المستقبل عصرًا لا يزال في طيّات الغيب، قد بدت تباشيره، وظهرت طلائعه لعيني، ولكنها لا تزال محجوبة عن أعين الناس، لو كُشف الغطاء عن وجه هذا الفجر المرتقب، لشقّ ذلك على أوروبا، وفقدت رشدها وجُنّ جنونها، هذا الفجر سيوقظ العقول، ويهزّ النفوس، ويزهر الآمال في الصدور، قد آن أن تشرق الأرض بنور ربها، ويعيش العالم من جديد.

يا ابن الإسلام:

أنت البغية المنشودة، وبحرك زاخر بالدرر واللآلئ.

أخي:

لا تربط نفسك وقلبك بالتراب، والحمإ المسنون، والحجارة والقرميد. إن الصقور لا تستريح ولا تهدأ في الأوكار.

أتهوي من القمة العالية، وتهبط من تلك العلياء التي رفعك إليها الإسلام؟! أصبحت لطول عهدك بالفتوحات لا تفهم لغة الصهيل والسيوف، وإهابة الشجعان المجاهدين، ألفت نغمة المغنين، وعشت بين الآهات والزفرات والأنين، فقدت عيناك النور، وحرم قلبك لذة السرور.

يا يوسف هذه الأحلام:

جدّد فيك الإيمان واليقين، فقد عراك الظن والتخمين، إن مقامك ومنزلك وراء هذه القبة الزرقاء والسماوات العلى، وإن رَكْبك يمشي فوق النجوم النيّرة والكواكب المتلألئة.

يا ابن الإسلام:

أنت وحدك تملك الآماد والأبعاد، أنت رسالة الله الأخيرة، وأنت خالد بخلود رسالتك، دائم بدوام دورك ومهمتك.

أخي:

إن ما حملته النبوة من تحفة غالية وهدية ثمينة، من عالم الماء والتراب إلى عالم الجنان والخلود الذي لا يزول ولا يحول، إنما هي أنت، وقد انكشف هذا السر الدقيق بماضي الأمة الحنيفية والملة السمحة البيضاء، أنت متصل النسب المعنوي بأبيك إبراهيم، خلقت لتحيا مع الله في جواره في فردوسه في دارٍ غَرسَ غَرسها الرحمن بيده.

إلى متى تتمتع برفقة الطيور المغرّدة في الحديقة الفيحاء بين الأغصان الرطبة البليلة، أليس بجناحيك قوة طيران الصقور المحلقة في الفضاء، التي تنشئ أوكارها في الجبال الجرداء الشماء.

أخي:

ما أعذبَ هذه الكلمات على شفتيك:

أنا مسلم والنور ينبض في دمي ... ولسان كل المكرمات لساني

أنا مسلم والشمس تألف هامتي ... والسائرون بدربها إخواني

يا يوسف هذه الأحلام:

أنت وحدك من يعي ويفهم قول الصادق الأمين ﷺ: «**إنما الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة**»(١).

أردد قولك وأسطره في فهمك للحديث: «**إنما قال: الناس كإبلٍ مئة**»، ولم يقل: «الدعاة كإبل مئة» بل نحن الرواحل كلنا فاقتحم فأنت لها..

قد غرسنا الدينَ في أرض القلوب وجلوْنا الحق من ستر الغيوبْ
ومن الدنيا حللْنا العقدا واستنار التُّرْب منا سجدًا
من دنان الحق صرّفنا الرحيق وهدمنا حانة الكفر العتيق
كأسنا كانت سراج المحفل صدرنا كان لقلب مشعل
إن هذا العصر من آثارنا من عجاج ثار في تسيارنا
نحن ورّاث هداة للبشر نحن عند الحق سرٌّ مدّخر
لا تزال الشمس تُبدي نورنا غيمنا فيه بروقٌ وسنا (٢)

أخي: ألا تشتاق لحمل راية الإسلام في فجره الآتي:

يا راية بالنور خافقةً يهفو إليكِ السمعُ والبصر
هيّا.. فإن الدهر مُرتَقِبٌ ومواكب التاريخ تنتظر

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي وابن ماجه، عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) من كتاب «تأملات» لمحمد إقبال – ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام.

يا يوسف الأحلام:

أخي إن فجرك آتٍ،..
وصبحك يركض نحو بلادٍ
يُعَشعشُ في قلبها العنكبوتْ
الضياءُ الذي في فؤادك يَصْهلُ..
والليلُ ليلٌ مقيتْ
وهل أنتَ إلَّا جوادٌ يخبُّ..
وسيف مُجُرَّدْ؟
فهل نفروا مثلما قد نفرتَ..؟
وهل سهدوا مثلما.. أنت مُسْهَدْ؟
وهل عرفوا لغة السيف يأبى المذلّة..
يا سيفنا المشرئب الذي..
ليس يُغمدْ؟
وها أنت طاولت كل النجوم..
وها هم عبيد القرود
وها هم وطاءٌ لكل مشرّدْ
تساميت كالأقحوانِ..
وأُرهفتَ.. والكل جَلْمدْ
فهُمْ كالحجارة.. لا حسّ فيها
ولكنك الآن نَبْعٌ تَوَلَّدْ

وهل أنتَ إلَّا كتابٌ..
سيقرؤهُ القادمون حروفًا تُغَرِّدْ؟
وهَلْ أنت إلَّا الثباتُ الأبيُّ..؟
وهل أنت إلَّا التجرّدْ
وهل أنت إلَّا الزمان التقيُّ
يخاطبنا عبر هذي التقيُّ
يخاطبنا عبر هذي الفيافي
فنصحو ونسعَدْ؟
ويدمغ من يذبحون الرجولة فينا
ويدحض من يفقدون اليقين المؤكد
وصوتك يا حِبَّنا
منذ حلَّ المساءُ..
وأوغل هذا الظلام المعربِدْ
وعادت خفافيشه تترصَّدْ
يسافِرُ في زمرةِ القابضين
على الجمر.. والجمرُ مُوقَدْ
فلا تبتئِس،
إنَّ فينا من الذِّكر آيًا
تُصَبِّرُنا في التهجَّدْ
وفينا من القبس النبويِّ..

مشاعل ضوء تبث اليقين.. بأرواحنا
في زمان التَرَدُّدْ[1].

---

(١)من قصيدة: «لأنك لا تعرف العيش إلَّا حُسامًا» من ديوان «الجواد المهاجر» لطاهر العتباني (ص٢١- ٣٠).